المجموعة التاريخية للصغار

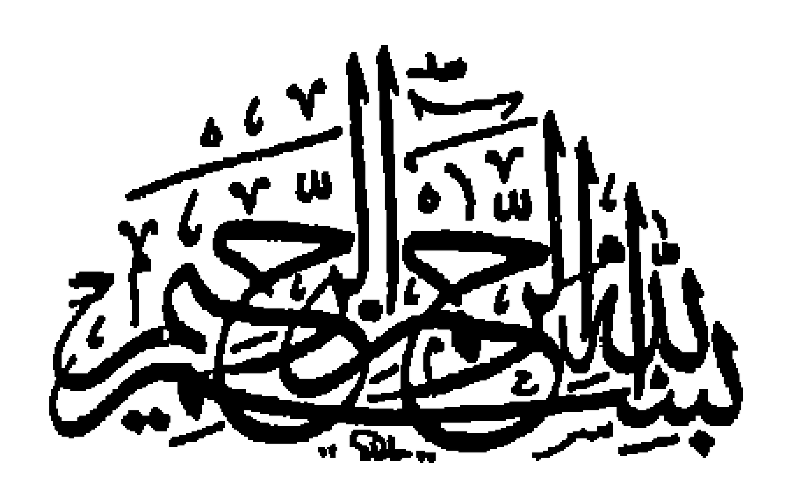
عجائب رحلة ابن بطوطة

المنبرُ الوفيُّ



إعداد
عبد القادر محمد مايو

مراجعة
أحمد عبد الله فرهود



منشورات

دار القلم العربي

الطبعة الأولى

مضبوطة ومشكولة

1423 هـ ـ 2003 م

عنوان الدار :

سورية ـ حلب ـ خلف الفندق السياحي ص.ب : 78

هاتف : 2213129 / 2269599 فاكس : 2212361 21 963+

email : qalamrab@scs-net.org

المنبَرُ الوَفِيُّ

جَلَسَ السُّلْطَانُ فَارِسُ بْنُ عَلِيٍّ المَرِينِيُّ عَلَىٰ عَرْشِهِ المَتَمَكِّنِ فِي قَاعَةِ الحَوْشِ مِنْ قَصْرِهِ بِمَدِينَةِ فَاسٍ المَغْرِبِيَّةِ ، وَطَلَبَ إِلَىٰ صَاحِبِهِ أَنْ يُدْخِلَ عَلَيْهِ كُلاًّ مِنَ الرَّحَالَةِ أَبِي عَبْدِ الله مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ شَمْسِ الدِّينِ الطَّنْجِيِّ ، وَالكَاتِبِ الظَّرِيفِ البَارِعِ مُحَمَّدِ بْنِ جُزَيٍّ الكَلْبِي وَقَدْ خَصَّهُمَا بِمَا تَبَقَّىٰ مِنْ لَيْلَتِهِ لِلمُنَادَمَةِ وَالسَّمَرِ ، وَاسْتِطْلاَعِ أَخْبَارِ رِحْلَةِ ابْنِ بَطّوطَةَ وَعَجَائِبِهَا لِتَدْوِينِهَا فِي سِجِلٍّ خَالِدٍ يَبْقَىٰ فِي ذَاكِرَةِ الأَجْيَالِ فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ ابْنُ بَطّوطَةَ أَلْقَىٰ عَلَيْهِ تَحِيَّةَ الإِسْلاَمِ ، السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ الله وَبَرَكَاتُهُ ، وَدَعَا لَهُ بِدَوَامِ العِزِّ وَالتَّأْيِيدِ ، فَأَوْمَأَ لَهُ السُّلْطَانُ لِيَكُونَ أَقْرَبَ إِلَىٰ مَجْلِسِهِ فِي القَاعَةِ الكَبِيرَةِ .

فَلَمَّا أُذِنَ لِلكَاتِبِ ابْنِ جُزَيٍّ أَدَّىٰ وَاجِبَ التَّحِيَّةِ وَالتَّسْلِيمِ وَالتَّعْظِيمِ لِلسُّلْطَانِ وَاتَّخَذَ مَجْلِسَهُ فِي مُقَابِلِ ابْنِ بَطُّوطَةَ ، مُبْدِياً اسْتِعْدَادَهُ بِالرِّيشَةِ

وَالمِحْبَرَةِ وَالقِرْطَاسِ لِيُدَوِّنَ جَمِيعَ مَا يَقُولُ بِسُرْعَةٍ وَبَرَاعَةٍ وَحِذْقٍ قَلَّ نَظِيرُهَا .

وَبِإِشَارَةٍ مِنَ السُّلْطَانِ أَبِي عِنَانٍ بَدَأَ الرَّحَّالَةُ سَرْدَ عَجَائِبِهِ الطَّرِيفَةِ قَائِلاً :

ـ كَانَ سُلْطَانَ مِصْرَ عَلَىٰ عَهْدِ دُخُولِي إِلَيْهَا المَلِكُ النَّاصِرُ أَبُو الفَتْحِ مُحَمَّدُ بْنُ المَلِكِ المَنْصُورِ سَيْفِ الدِّينِ قَلاَوُونَ الصَّالِحِيِّ . وَلِلمَلِكِ المَنْصُورِ ـ رَحِمَهُ الله ـ السِّيرَةُ الكَرِيمَةُ ، وَالفَضَائِلُ العَظِيمَةُ ، وَكَفَاهُ شَرَفاً اهْتِمَامُهُ بِخِدْمَةِ الحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْن ، وَعَوْنُهُ الكَبِيرُ لِلحَجِيجِ فِي دَرْبَيْ مِصْرَ وَالشَّامِ ، وَلَكِنَّ السُّلْطَانَ النَّاصِرَ رُغْمَ أَفْضَالِهِ السَّابِقَةِ هُوَ بَعْضٌ مِنْ كُلٍّ مِنْ مَكَارِمِ مَوْلاَيَ أَبِي عِنَانٍ وَفَضَائِلِهِ ، وَلاَبُدَّ لِلمُنْصِفِ أَنْ يَشْهَدَ بِالفَضْلِ لِصَاحِبِهِ وَلَنْ أَكُونَ مُبَالِغاً إِذَا سَمَّيْتُ مِصْرَ قَبْلَ المَلِكِ النَّاصِرِ وَبَعْدَهُ بِأُمِّ العَجَائِبِ ، بَلْ هِيَ أُمُّ الدُّنْيَا فَدَعْنِي بِإِذْنِكَ يَا مَوْلاَيَ أَتَعَرَّضُ بِالذِّكْرِ لِبَعْضِ مَا طَالَعْتُهُ فِيهَا مِنْ عَجَائِبِ البُنْيَانِ وَالخَيْرَاتِ الحِسَانِ .

فِي مِصْرَ المَحْرُوسَةِ مَسْجِدُ عَمْرِو بْنِ العَاصِ ، وَبِشَرْقِهِ زَاوِيَةٌ دَرَّسَ فِيهَا الإِمَامُ أَبُو عَبْدِ اللهِ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ . أَمَّا مَدَارِسُهَا فَلاَ يُحِيطُ أَحَدٌ بِحَصْرِهَا لِكَثْرَتِهَا ، وَكَذَلِكَ الزَّوَايَا لِلفُقَرَاءِ المُتَعَبِّدِينَ وَيُسَمُّونَهَا الخَوَانِقَ يَعْمُرُهَا أَهْلُ أَدَبٍ وَمَعْرِفَةٍ بِطَرِيقَةِ التَّصَوُّفِ .

وَلِمِصْرَ القَرَافَةُ العَظِيمَةُ الشَّأْنِ فِي التَبَرُّكِ بِهَا ، وَهِيَ مِنَ جُمْلَةِ جَبَلِ المُقَطَّمِ الذِي وَعَدَ اللهُ أَنْ يَكُونَ رَوْضَةً مِنْ رِيَاضِ الجَنَّةِ ، وَفِيهَا قِبَابٌ وَمَزَارَاتٌ شَرِيفَةٌ ، أَحَدُهَا لِرَأْسِ الحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ ، وَمِنْهَا تُرْبَةُ الإِمَامِ أَبِي عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدِ بْنِ إِدْرِيسَ الشَّافِعِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، وَقَدْ شُيِّدَتْ فَوْقَهَا قُبَّةٌ بَدِيعَةُ الإِتْقَانِ مُفْرِطَةُ السُّمُوِّ ، سِعَتُهَا أَكْثَرُ مِنْ ثَلاَثِينَ ذِرَاعاً ، وَبِقَرَافَةِ مِصْرَ مِنْ قُبُورِ العُلَمَاءِ وَالصَّالِحِينَ مَا لاَ يَضْبِطُهُ الحَصْرُ .

وَنَهْرُ النِّيلِ فِي مِصْرَ يَفْضُلُ أَنْهَارَ الأَرْضِ عُذُوبَةً وَمَذَاقاً وَاتِّسَاعاً ، حَتَّىٰ سُمِّيَ بِالبَحْرِ ، وَلِفَيَضَانِهِ مَوْسِمٌ فِي حَزِيرَانَ مِنْ كُلِّ عَامٍ مِمَّا يَجْلِبُ الخَيْرَ وَالبَرَكَةَ لأَهْلِ مِصْرَ كُلِّهَا بِفَضْلٍ مِنَ اللهِ وَهُوَ الكَرِيمُ الوَهَّابُ المَنَّانُ سُبْحَانَهُ .

وَمِنْ عَجَائِبِ مِصْرَ المَذْكُورَةِ عَلَىٰ مَرِّ الدُّهُورِ الأَهْرَامُ وَالمَعَابِدُ الفِرْعَوْنِيَّةُ القَدِيمَةُ ، وَالأَهْرَامُ بِنَاءٌ بِالحَجَرِ الصَّلْدِ مُتَّسِعُ الأَسْفَل ضَيِّقُ الأَعْلَىٰ اتُّخِذَ مُسْتَوْدَعاً لِلعُلُومِ وَجُثَثِ المُلُوكِ ، وَعَزَّ نَقْضُ بُنْيَانِهِ عَلَىٰ كُلِّ مَنْ يُحَاوِلُ حَتّىٰ أَعْيَا ذَلِكَ جُهُودَ الخَلِيفَةِ العَبَّاسِيِّ عَبْدِ الله المَأْمُونِ فَلَمْ يَخْرُجْ مِنْ مُحَاوَلَتِهِ إِلاَّ بِالعَجَبِ مِنْ صَلاَدَتِهِ وَمِمَّاكَتَبَهُ الله لَهُ مِنَ البَقَاءِ عَلَىٰ وَجْهِ المَعْمُورَةِ .

قَالَ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةَ لِلسُّلْطَانِ أَبِي عِنَانٍ المَرِينِيِّ الفَاسِيِّ :

ـ حِلْمَكَ يَا مَوْلاَيَ ، وَلاَ تُؤَاخِذْنِي عَلَىٰ الإِطَالَةِ وَالإِمْلاَلِ فَإِنِّي أَعِدُكَ بِأَنْ أُسْمِعَكَ بِأَعْجَبِ العَجَائِبِ فِيمَا يَلِي مِنْ حَدِيثِي إِلَيْكَ لِيَكُونَ آخِرُ حَدِيثِي أَطْرَفَهُ وَأَكْثَرَهُ تَسْلِيَةً وَإِمْتَاعاً ، وَلَقَدْ ادَّخَرْتُ لَكَ قِصَّةً مِنْ أَعْجَبِ القِصَصِ أَطْلَعَنِي عَلَيْهَا بَعْضُ أَهْلِ مَنْفَلُوطَ وَهِيَ مِنْ مُدُنِ صَعِيدِ مِصْرَ .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ :

ـ دُونَكَ وَمَا اعْتَزَمْتَ عَلَيْهِ ، فَأَنْتَ غَزِيرُ الإِلْمَامِ وَالاسْتِفَاضَةِ ، مُمْتِعُ الحَدِيثِ ، وَلَكِنْ رِفْقاً بِصَاحِبِكَ الكَاتِبِ ابْنِ جُزَّيٍّ فَهُوَ يَسُوقُ رِيشَتَهُ عَلَىٰ

القِرْطَاسِ سَوْقَ الحَرُونِ ، إلاَّ إِذَا رَحِمْتُهُ وَلَم تُعَجِّلْ فِي الرِّوَايَةِ .

قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ أَنَا يَا مَوْلاَيَ السُّلْطَانَ طَيِّبُ النَّفْسِ بِكَ وَبِأَخِي ابْنِ جُزَيٍّ ، وَأَرْجُو أَنْ يَخُفَّ مَحْمَلِي عَلَىٰ سمَعَيْكُمَا ، وَعَلَىٰ الأَنَامِلِ القَابِضَةِ عَلَىٰ الرِّيشَةِ سَلَّمَهَا الله .

ابْتَسَمَ الكَاتِبُ ابْنُ جُزَيٍّ ابْتِسَامَةً تَعْنِي الشُّكْرَ لِحَدِيثِ ابْنِ بَطُّوطَةَ اللَّطِيفِ ، وَأَوْمَأَ إِلَىٰ الرَّاوِيَةِ البَطُّوطِيِّ أَنِ اسْتَمِرَّ فِي حَدِيثِكَ ، وَأَنَا كَفِيلٌ بِاخْتِزَالِهِ وَتَدْوِينِهِ ، وَأَضَافَ ابْنُ بَطُّوطَةَ وَاثِقاً مِنْ جَاذِبِيَّةِ حَدِيثِهِ :

ـ لَعَلَّ مِنْ أَجْمَلِ أَيَّامِ مِصْرَ ، وَأَخَصِّ مُنَاسَبَاتِهَا بِالاهْتِمَامِ يَوْمَ المَحْمَلِ ، وَهُوَاليَوْمُ الذِي يَتَوَجَّهُ فِيهِ مَوْكِبُ الحَجِّ إِلَىٰ الحِجَازِ . . وَيَدُورُ فِيهِ الجَمَلُ وَيَتْبَعُهُ عَلَىٰ التَّرتِيبِ القُضَاةُ الأَرْبَعَةُ ، المَالِكِيُّ وَالشَّافِعِيُّ وَالحَنَفِيُّ وَالحَنْبَلِيُّ عَلَىٰ جِمَالِهِم ، وَيَتْبَعُهُم أَعْلاَمُ الفُقَهَاءِ ، وَأُمَنَاءُ الرُؤَسَاء وَأَرْبَابُ الدَّوْلَة ، وَيَقْصِدُونَ جَمِيعاً بَابَ القَلْعَةِ ، دَارِ المَلِكِ النَّاصِرِ فَيَخْرُجُ إِلَيْهِمُ المَحْمَلُ عَلَىٰ جَمَلٍ وَأَمَامَهُ المُعَيَّنُ لِلسَّفَرِ

بِالمَحْمَلِ فِي تِلْكَ السَّنَةِ ، وَمَعَهُ عَسْكَرُهُ وَالسَقَّاؤُونَ عَلَىٰ جِمَالِهِم ، وَيَجْتَمِعُ حَوْلَ المَوْكِبِ أَصْنَافٌ مِنَ النَّاسِ ، رِجَالِهِم وَنِسَائِهِم ثُمَّ يَطُوفُونَ بِالمَحْمَلِ . وَهَذَا مَاتَشْهَدُهُ مَدِينَةُ القَاهِرَةِ وَمصْرَ فِي شَهْرِ رَجَبٍ مِنْ كُلِّ عَامٍ ، فَإِذَا بِعَزَائِمِ المُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِنَاتِ تَنْشَطُ إِلَىٰ الحَجِّ ، وَيَأْخُذُ المُعْتَزِمُونَ فِي التَأَهُّبِ وَالاسْتِعْدَادِ .

كَانَ سَفَرِي مِنْ مِصْرَ عَلَىٰ طَرِيقِ الصَّعِيدِ ، قَاصِداً الحِجَازَ الشَّرِيفَ ، وَقَدْ طَالَعَتْنِي رُؤْيَةُ مُدُنٍ وَبُلْدَانَ عَلَىٰ سَاحِلِ النِّيلِ مِنْهَا مِنْيَةُ القَائِدِ ، وَبُوش ، وَدَلَاص ، وَببا . وَمِنْ ببا سَافَرْتُ إِلَىٰ مَدِينَةِ البَهْنَسَا ، وَهِي مَدِينَةٌ كَبِيرَةٌ كَثِيرَةُ البَسَاتِينِ ، تُصْنَعُ فِيهَا الثِيَابُ الصُّوفِيَّةُ مِنْ أَجْوَدِ الأَنْوَاعِ . وَمِنْهَا سَافَرْتُ إِلَىٰ مَدِينَةِ مِنْيَةَ ابْنِ خَصِيبٍ ، وَهِيَ مَدِينَةٌ كَبِيرَةٌ مُتَّسِعَةُ المِسَاحَةِ تَقَعُ عَلَىٰ شَاطِیءِ النِّيلِ ، وَتَفْضُلُ غَيْرَهَا مِنْ مُدُنِ صَعِيدِ مِصْرَ ، وَهِي هِبَةُ الخَلِيفَةِ العَبّاسِيِّ لِوَالِي مِصْرَ فِي أيّامِهِ ، وَهُوَ الذِي قَالَ فِيهِ الشَّاعِرُ أَبُو نُواسٍ مَادِحاً :

أَنْـتَ الخصِيـبُ وَهَـذِهِ مِصْـرُ   فَتَـدَفَّقَـا فَكِـلاَكُمَـا بَحْـرُ

وَسَافَرْتُ مِنْ مِنْيَةِ ابْنِ خَصِيبٍ هَذِهِ إِلَىٰ مَدِينَةِ مَنْلَوِي ، وَهِيَ صَغِيرَةٌ مَبْنِيَّةٌ عَلَىٰ مَسَافَةِ مِيلَيْنِ مِنَ النِّيلِ وَبِهَا مَعَاصِرُ لِلسُّكَّرِ يَقْصِدُهَا الفُقَرَاءُ وَيَلُتُّونَ أَرْغِفَتَهُم بِالسُّكَّرِ المَطْبُوخِ لِيَأْتَدِمُوا بِهَا ، صَدَقَةً عَلَىٰ حِسَابِ أَصْحَابِهَا .

وَسَافَرْتُ مِنْ مَدِينَةِ مَعَاصِرِ السُّكَّرِ إِلَىٰ مَدِينَةِ مَنفَلُوطَ ، وَهِيَ مَدِينَةٌ حَسَنَةٌ أَنِيقَةُ البِنَاءِ ، عَلَىٰ ضِفَّةِ النِّيلِ ، شَهِيرَةٌ بِبَرَكَاتِهَا ، وَمِنْ أَخْبَارِهَا العَجِيبَةِ حِكَايَةُ المِنْبَرِ الوَفِيِّ ، وَهِيَ مِنْ أَعْجَبِ مَاسَمِعْتُ فِي مِصْرَ .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ وَقَدْ اسْتَأْسَرَهُ الفُضُولُ لِمَعْرِفَةِ حِكَايَةِ المِنْبَرِ الوَفِيِّ :

ـ هَاتِ يَا بْنَ بَطُّوطَةَ وَأَنْجِزْ وَعْدَكَ بِإِطْرَافِنَا بِأَعْجَبِ العَجَائِبِ . .

قَالَ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ سَتَجِدُنِي عِنْدَ وَعْدِيَ يَا مَوْلَايَ السُّلْطَانَ ، وَلَيْسَتْ مَسَرَّتِي إِلاَّ فِي أَنْ أَسُرَّكَ وأُمْتِعَكَ بِعَجَائِبِ الأَمْصَارِ وَغَرَائِبِ الأَسْفَار ، وَعَلَىٰ الله الاتِّكَالُ ، وَالتَّوْفِيقُ لِمَنْ حَسُنَ مَقْصِدُهُ ، وَصَدَقَ إِخْلاَصُهُ .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ :

ـ أَنْتَ لَهَا يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ . . . أَنْتَ لَهَا . . بَارَكَ اللهُ فِيكَ .

قَالَ الكَاتِبُ مُحَمَّدُ بْنُ جُزِّيٍّ وَهُوَ يَبْتَسِمُ :

ـ وَفِيَّ أَيْضاً . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ مُقَهْقِهاً :

ـ وَفِيكَ أَيْضاً يَا بْنَ جُزِّيٍّ . .

وَاسْتَرْسَلَ ابْنُ بَطُّوطَةَ فِي الحَدِيثِ قَائِلاً :

حِينَ وَصَلْتُ إِلَىٰ مَدِينَةِ مَنْفَلُوطَ أَقَمْتُ فِيهَا أَيَّاماً ، وَقَدْ حَدَّثَنِي غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِهَا بِحَدِيثِ أُعْجُوبَةِ المِنْبَرِ الوَفِيِّ الذَي أَدَّىٰ الأَمَانَةَ لِصَانِعِهِ الفَتَىٰ خَيْرَ أَدَاءٍ ، وَكَأَنَّهَا كَرَامَةٌ لِهَٰذَا الفَتَىٰ الصَّالِحِ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ .

وَالحِكَايَةُ وَمَا فِيهَا أَنَّ المَلِكَ النَّاصِرَ مَلِكَ قَاهِرَةِ مِصْرَ المَحْرُوسَةِ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ أَمَرَ بِعَمَلِ مِنْبَرٍ عَظِيمٍ ، مُحْكَمِ الصَّنْعَةِ بَدِيعِ الإِنْشَاءِ ، مُتَّجِهاً فِي نِيَّتِهِ إِلَىٰ إِهْدَائِهِ إِلَىٰ المَسْجِدِ الحَرَامِ بِمَكَّةَ المُكَرَّمَةِ ، شَرَّفَهَا اللهُ وَعَظَّمَهَا وَمَسْجِدَهَا تَعْظِيماً .

وَقَدْ تَمَّ إِنْجَازُهُ مِنْ خَشَبِ السِّنْدِيَانِ وَالعُودِ الهِنْدِيِّ عَلَىٰ يَدَيْ صَانِعٍ مَاهِرٍ شَابٍّ ، مُنْحَدَرُهُ فِي الأَصْلِ مِنْ مَدِينَةِ مَنْفَلُوط ،ذَاتِ الكَرَامَاتِ وَالبَشَائِرِ . قَالُوا : فَلَمَّا أَنْجَزَهُ صَانِعُهُ كَانَ آيَةً ضَخْمَةً مِنْ آيَاتِ التَّفَنُّن وَالإِبْدَاعِ الجَمِيلِ . وَأَمَرَ المَلِكُ النَّاصِرُ أَنْ يُصْعَدَ بِالمِنْبَر عَلَىٰ مَرْكَبٍ فِي بَحْرِ النِّيلِ ، وَمِنْهُ إِلَىٰ بَحْرِ جُدَّةَ ، وَمَنْهَا إِلَىٰ مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ حَيْثُ يُودَعُ فِي المَسْجِدِ الحَرَامِ خِدْمَةً لِلبَيْتِ العَتِيقِ الذي بَارَكَ الله حَوْلَهُ ، وَتَقَرُّباً إِلَىٰ الله جَلَّ وَعَلاَ .

فَلَمَّا حُمِلَ المِنْبَرُ عَلَىٰ المَرْكَبِ المُسَافِرِ اسْتَأْذَنَ الفَتَىٰ الصَانِعُ رُبَّانَهُ فِي تَوْدِيعِ المِنْبَرِ وَهُوَ فِي طَرِيقِهِ إِلَىٰ مَدِينَتِهِ وَمَسْقَطِ رَأْسِهِ (مَنْفَلُوطَ) .

وَشَاهَدَهُ الرُبَّانُ قَائِدُ المَرْكَبِ ، وَالبَحَّارَةُ وَهُوَ يَدْنُو مِنْهُ وَيُقَبِّلُهُ ، وَهُوَ يَهْمِسُ فِي يُمْنَاهُ بِكَلِمَاتٍ خَفِيَتْ عَلَىٰ الجَمِيعِ . وَمَا إِنْ نَزَلَ الفَتَىٰ إِلَىٰ البَرِّ حَتَّىٰ تَحَرَّكَ المَرْكَبُ فِي بَحْرِ النِّيلِ جَنُوباً بِاتِّجَاهِ مَنْفَلُوطَ .

قَالُوا : فَلَمَّاوَصَلَ المَرْكَبُ بِمَا يُقِلُّ إِلَىٰ مَنْفَلُوطَ ، وَحَاذَىٰ مَسْجِدَهَا الجَامِعَ ، وَقَفَ وَامْتَنَعَ مِنَ الجَرْيِ عَلَىٰ وَجْهِ المَاءِ رُغْمَ مُسَاعَدَةِ الرِّيحِ .

فَعَجِبَ قَائِدُ المَرْكَبِ وَمُسَاعِدُوهُ مِنْ ذَلِكَ أَشَدَّ العَجَبِ ، وَاحْتَالُوا فِي أَمْرِهِ بِتَغْيِيرِ اتِّجَاهِ الأَشْرِعَةِ وَتَخْفِيفِ بَعْضِ الأَحْمَالِ مِمَّا يُثْقِلُ المَرْكَبَ ، فَلَمْ يُجْدِ ذَلِكَ نَفْعاً ، وَأَقَامُوا عَلَىٰ حَيْرَتِهِم أَيَّاماً لاَ يَنْهَضُ بِهِمُ المَرْكَبُ ، فَلَمْ يَجِدُوا سَبِيلاً لِلتَّصَرُّفِ أَجْدَىٰ مِنَ الكِتَابَةِ إِلَىٰ المَلِكِ النَّاصِرِ .

فَلَمَّا وَصَلَ الخَبَرُ بِتَوَقُّفِ المَرْكَبِ عِنْدَ مَسْجِدِ مَنْفَلُوطَ دُونَ أَنْ يُحَقِّقَ غَايَتَهُ فِي إِيصَالِ المِنْبَرِ البَدِيعِ إِلَىٰ المَسْجِدِ الحَرَامِ عَجِبَ مِنْ ذَلِكَ ، وَسَاءَهُ أَنْ يَحُولَ حَائِلٌ دُونَ إِبْلاَغِ قُرْبَانِهِ إِلَىٰ مَوْلاَهُ تَعَالَىٰ وَمَسْجِدِهِ وَبَيْتِهِ الحَرَامِ .

وَارْتَأَىٰ المَلِكُ النَّاصِرُ بَعْدَ الاسْتِشَارَةِ أَنْ يَبْعَثَ فِي طَلَبِ قَائِدِ المَرْكَبِ يَسْتَطْلِعُ رَأْيَهُ ، وَهُوَ رُبَّانٌ مَاهِرٌ ، وَشَيْخٌ عَتِيقٌ مِنْ شُيُوخِ البَحْرِ .

خَفَّ قَائِدُ المَرْكَبِ فِي إِجَابَةِ دَعْوَةِ المَلِكِ النَّاصِرِ حَتَّىٰ أُدْخِلَ عَلَيْهِ فِي قَصْرِهِ بِالقَاهِرَةِ ، فَلَمَّا اسْتَطْلَعَ مِنْهُ الخَبَرَ العَجِيبَ سَأَلَهُ :

ـ أَلَمْ تَلْحَظْ أَيُّهَا الرُّبَّانُ الشَّيْخُ حَدَثاً قَدْ يَكُونُ لَهُ تَأْثِيرُهُ فِي جُمُودِ المَرْكَبِ عَنْ مَقْصِدِهِ وَتَوَقُّفِهِ بِالمِنْبَرِ فِي مَنْفَلُوطَ دُونَ غَيْرِهَا مِنَ البُلْدَانِ البَحْرِيَّةِ وَالمَرَاسِي ؟ !

أَجَابَ قَائِدُ المَرْكَبِ .

ـ وَحَقِّكَ يَا مَوْلَايَ المَلِكَ لَمْ أَلْحَظْ شَيْئاً غَرِيباً سِوَىٰ أَنَّ أَحَدَ الفِتْيَانِ ، جَاءَنِي مُسْتَأْذِناً فِي وَدَاعِ المِنْبَرِ مُدَّعِياً أَنَّهُ صَانِعُهُ ، وَقَدْ رَأَيْتُهُ وَجَمَاعَةٌ مِمَّنْ مَعِي يَدْنُو مِنَ المِنْبَرِ وَيُقَبِّلُهُ وَيَهْمِسُ فِي عَضَادَتِهِ اليُمْنَىٰ بِبِضْعِ كَلِمَاتٍ لَمْ نَتَبَيَّنْهَا فِي حِينِهَا .

قَالَ المَلِكُ النَّاصِرُ :

ـ هَذَا هُوَ السِّرُّ فِي عَدَمِ إِقْلَاعِ المَرْكَبِ عِنْدَ بُلُوغِهِ مَنْفَلُوطَ . عَلَيَّ بِالفَتَىٰ النَّجّارِ صَانِعِ المِنْبَرِ .

اسْتَحْضَرَ الجُنْدُ الفَتَىٰ النَّجّارَ صَانِعَ المَرْكِبِ بِأَمْرِ المَلِكِ عَلَىٰ وَجْهِ السُّرْعَةِ ، فَدَخَلَ القَصْرَ المَلَكِيَّ وَهُوَ يَرْتَجِفُ ذُعْراً مِنْ سُوءِ المَصِيرِ ،

وَوَدَّ أَنَّهُ لَمْ يَصْنَعِ المِنْبَرَ وَلَمْ يَقْبِضْ مُكَافَأَتَهُ السَنِيَّةَ ، مِنَ الدَّنَانِيرِ الذَّهَبِيَّةِ .

قَالَ المَلِكُ النَّاصِرُ لِلفَتَىٰ الصَّانِعِ لَدَىٰ مُثُولِهِ بَيْن يَدَيْهِ :

ـ عَلَيْكَ الأَمَانُ إِنْ أَخْبَرْتَنِي بِالحَقِيقَةِ وَبِسَرِّ الهَمْسَةِ التِي هَمَسْتَهَا إِلَىٰ عَضَادَةِ المِنْبَرِ الذِي صَنَعْتَهُ . .

قَالَ الفَتَىٰ الصَّانِعُ :

ـ كُنْتُ ـ يَا مَوْلَايَ المَلِكَ ـ قَدْ وَدَّعْتُ أَبِي العَجُوزَ عَلَىٰ أَحَدِ المَرَاكِبِ مِنْ مَنْفَلُوطَ إِلَىٰ مِصْرَ ، وَقَدْ فَجَعْتُهُ بِفِرَاقِي بَعْدَ أَنْ فُجِعْنَا مَعاً بِفِرَاقِ أُمِّي بِالمَوْتِ ، وَكُنَّا ذَوِي فَقْرٍ وَحَاجَةٍ فَلَمَّا شَهِدَ وَالِدِي احْتِرَافِي لِلنِّجَارَةِ وَبَرَاعَتِي فِيهَا أَذِنَ لِي بِالسَّفَرِ إِلَىٰ حَيْثُ أَرْتَزِقُ فِي عَاصِمَةِ الدَّوْلَةِ العَامِرَةِ ، زَادَهَا الله بِكُمْ عِزّاً وَعَمْرَاناً ، وَتَعَهَّدَنِي شَيْخُ الكَارِ مِنَ النَّجَّارِينَ حَتَّىٰ قُمْتُ بِصِنَاعَةِ المِنْبَرِ بِإِشَارَتِكُمْ . . وَكَانَتْ عِبَارَةُ الوَدَاعِ التِي هَمَسْتُ بِهَا لِعَضَادَةِ المِنْبَرِ اليُمْنَىٰ :

ـ أَسْتَوْدِعُكَ اللهَ أَيُّهَا المِنْبَرُ . . سَلِّمْ لِي عَلَىٰ أَبِي هُنَاكَ ، أَتَمَنَّىٰ أَنْ يَرَاكَ فِي مَسْجِدِ مَنْفَلُوط فَكَأَنَّهُ يَرَانِي . . هَذَا كُلُّ مَا فِي الأَمْرِ . . صَدِّقْنِي يَا مَوْلاَيَ المَلِكَ . .

قَالَ المَلِكُ النَّاصِرُ :

ـ صَدَقْتَ ، صَدَقْتَ أَيُّهَا الفَتَىٰ ، وَيَبْدُو أَنَّكَ وَأَبَاكَ مِنْ أَهْلِ التُّقَىٰ وَالصَّلاَحِ وَالكَرَامَاتِ ، وَإِلاَّ لَمَا اسْتَجَابَ المِنْبَرُ لِهَمْسَتِكَ وَأُمْنِيَتِك وَهُوَ جَمَادٌ مَحْضٌ ، وَإِكْرَاماً لَكَ وَلأَبِيكَ ، سَأُصْدِرُ أَمْراً بِأَنْ يُجْعَلَ المِنْبَرُ بِجَامِعِ مَدِينَةِ مَنْفَلُوطَ ، وَأُعْطِيك مِنَ المَالِ مَا يَكْفِي لِتَقَرَّ عَيْنُكَ وَتَجْتَمِعَ بِأَبِيكَ ، فِي القَاهِرَةِ أَوْ مَنْفَلُوطَ بِحَسَبِ مَا تَخْتَارُ .

وَبَرّ المَلِكُ الصَّالِحُ بِوَعْدِهِ ، وَكَانَ وَجْهُهُ وَجْهَ سَعَادَةٍ وَإِقْبَالٍ عَلَىٰ الفَتَىٰ الصَّالِحِ الصَّادِقِ فِي حُبِّهِ لأَبِيهِ ، وَقَدْ وَفَّىٰ لَهُ المِنْبَرُ الخَشَبِيُّ وَفَاءَهُ لِمَنْ رَبَّاهُ . .

انْتَشَىٰ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ بِحِكَايَةِ ابْنِ بَطُّوطَةَ عَنِ المِنْبَرِ الوَفِيِّ ، وَأَمَرَ بِإِكْرَامِهِ فِي الحَالِ بِبَدْرَةٍ مِنَ المَالِ . . وَنَوَىٰ فِي دَاخِلِ نَفْسِهِ أَنْ يَزْدَادَ

حِرْصاً عَلَىٰ اسْتِبْقَاءِ الرَّحَّالَةِ الأَمِينِ فِي حَاشِيَتِهِ عَلَىٰ أَنَّهُ مُسْتَوْدَعٌ لاَ يَنْفَدُ مِنَ الحِكْمَة وَالأَخْبَارِ وَالعَجَائِبِ وَالطَّرَائِفِ ، وَحَمِدَ الله رَبَّ العَالَمِين عَلَىٰ مَا أَوْلاَهُ مِن الفَضْلِ بِوُجُودِ أَمْثَالِ ابْنِ بَطُّوطَةَ وَابْنِ جُزِّيٍّ لِيَتَعَلَّمَ مِنْهُمَا وَيُخَلِّفَ دُرُوساً فِي الاعْتِبَارِ ، فَسُبْحَانَ الله الوَاحِدِ القَهَّارِ . .

☆☆ ☆☆ ☆☆